شعر رثاء الإمام الرضا عليه السلام دراسة في الموضوع والفن

الأستاذ الدكتور حسين لفته حافظ
جامعة الكوفة ـ مركز دراسات الكوفة
altamy176@gmail.com

Poetry of Lamenting Imam Reza (peace be upon him) a study in the subject and art

Prof. Dr. Hussein Lafta Hafez
Kufa Studies Center , University of Kufa

الملخص:

إن الشعر مؤثر في النفوس لما له من الوقع في القلوب قبل الآذان، بفعل وزنه وحسن أسلوبه وجميل نظمه، وكان الشعر من مفاخر العرب سواء في نظمه ام في إنشاده، وبالخصوص إذا كان شعر مناسب لزمان مناسب ومقال لحال يستوجب، نعم إن الغواية في الشعر لمن يضل الناس ومن يقول باطلا أو يمدح ضالا.

ومن هنا جاءت فكرة البحث في دراسة القيم الخلقية والفنية التي اشتمل عليها أدب رثاء الإمام الرضا عليه السلام، وهي قيم نبيلة مستوحاة من حياة الإمام الحافلة بالعطاء والقيم والفضائل فأخلاق الإمام هي أخلاق القران الكريم، هذا من جانب والجانب الآخر في هذه الدراسة يتمثل في طريقة إخراج هذا الفن بصورة مؤثرة لا يستطيعها كل شخص فهي تحتاج الى موهبة خاصة تتمثل في التعبير عن المعاني بصورة فنية، ويستفيد القارئ لهذا الأدب بأنه أصبح سجلا خالدا لمآثر الإمام الرضا.

يتعلم منه الجيل أجمل قيم الفضيلة فضلا عن القيم التربوية التي رسمها الإمام عليه السلام.

أما عن خطة البحث فقد اشتملت على مبحثين تناول المبحث الأول الدراسة الموضوعية اما المبحث الثاني فقد تناول الدراسة الفنية لشعر رثاء الامام الرضا عليه السلام، وقد سبق ذلك تمهيد تطرق لحياة المعصوم عليه السلام وقد أعقبت ذلك بخاتمة لخصت فيها اهم النتائج، اسال الله ان يمن علينا بوافر رحمته انه سميع مجيب.

الكلمات المفتاحية: شعر الرثاء، الامام الرضا عليه السلام، موضوعات الشعر، الدراسة الفنية.

Abstract:-

In the name of God, the Most Gracious, the Most Merciful, and prayers and peace be upon the envoy, as a mercy to the worlds, Muhammad the Secretary, and his pure household, and after...

Poetry is influential in the souls because of its impact in the hearts before the call to prayer, due to its weight, good style, and beautiful arrangement. He misleads people and he who says falsehood or praises a misguided person.

Hence the idea of research in the study of moral and artistic values included in the literature of lamenting Imam Al-Rida, peace be upon him, and they are noble values inspired by the life of the Imam

With giving, values and virtues, the imam's morals are the morals of the Noble Qur'an. This is on the one hand, and the other aspect of this study is the way to produce this art in an effective way that not every person can, as it needs a special talent represented in expressing meanings in an artistic way, and the reader benefits from this literature that it has become a record Immortal for the exploits of Imam Reza

The generation learns from him the most beautiful values of virtue as well as the educational values drawn by the Imam, peace be upon him.

As for the research plan, it included two sections, the first dealt with the objective study, while the second topic dealt with the technical study of the poetry of lamentation of Imam al-Rida, peace be upon him. With his mercy, he is a hearing respondent.

key words: Poetry of lamentation, Imam Reza, peace be upon him, topics of poetry, artistic study.

المقدمة:

يلاحظ المتتبع لأخبار الإمام الرضا عليه السلام انه لا يختلف عن غيره من الأئمة الأطهار في تفضيله وإنشاده للشعر الجميل العذب فقد ورد في كتاب عيون أخبار الرضا روايات كثيرة تدلل على هذه المنزلة فالإمام يستشهد بما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله (إن من البيان لحكمة ومن الشعر لسحرا)، وإن الله توعد الحسنى للذين آمنوا من الشعراء ومن ينشد بأحسن البيان لتعريف حق أو شرح هدى، فإن الشعر مؤثر في النفوس لما له من الوقع في القلوب قبل الآذان، وبرنة وزنه وحسن أسلوبه وجميل نظمه، وكان الشعر من مفاخر العرب سواء في نظمه أو في إنشاده، وبالخصوص إذا كان شعر مناسب لزمان مناسب ومقال لحال يستوجب، نعم إن الغواية في الشعر لمن يضل الناس ومن يقول باطلا أو يمدح ضالا.

ومن هنا جاءت فكرة البحث في دراسة القيم الخلقية والفنية التي اشتمل عليها أدب رثاء الإمام الرضا عليه السلام، وهي قيم نبيلة مستوحاة من حياة الإمام الحافلة بالعطاء والقيم والفضائل فأخلاق الإمام هي أخلاق القران الكريم، هذا من جانب والجانب الآخر في هذه الدراسة يتمثل في طريقة إخراج هذا الفن بصورة مؤثرة لا يستطيعها كل شخص فهي تحتاج الى موهبة خاصة تتمثل في التعبير عن المعاني بصورة فنية، ويستفيد القارئ لهذا الأدب بأنه أصبح سجلا خالدا لمآثر الإمام الرضا.

يتعلم منه الجيل أجمل قيم الفضيلة فضلا عن القيم التربوية التي رسمها الإمام عليه السلام.

أما عن خطة البحث فقد اشتملت على مبحثين تناول المبحث الأول الدراسة الموضوعية اما المبحث الثاني فقد تناول الدراسة الفنية لشعر رثاء الامام الرضا عليه السلام، وقد سبق ذلك تمهيد تطرق لحياة المعصوم عليه السلام وقد أعقبت ذلك بخاتمة لخصت فيها اهم النتائج، اسال الله ان يمن علينا بوافر رحمته انه سميع مجيب.

التمهيد:

سيرة الامام الرضا عليه السلام:

ولد في المدينة المنورة وذكرت روايات مختلفة في يوم وشهر ولادته فقيل في السادس من شوال او السابع او الثامن منه[١]، وقيل في الحادي عشر من ربيع الاول[٢].

واختلف ايضا في سنة ميلاده الميمون فقيل سنة احدى وخمسين ومائة وقيل سنة ثلاث وخمسين ومائه[٣]. والرواية المشهورة هي ولادته في سنة (١٤٨هـ) بعد وفاة الامام الصادق عليه السلام بأيام، ذهب اليها الشيخ الكليني، والشيخ المفيد، والشيخ الطوسي[٤].

ثانياً: اسمه

علي بن موسى بن جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب هو ثامن الائمة الاثني عشر من سلالة طاهرة اراقت سلم الكمال وكانوا بمرتبة الانبياء والاوصياء فهم حبل الله المتين وحجته على عباده وهم السبيل اليه تمت بموالاتهم الكلمة، وعظمت النعمة، وائتلفا الفرقة وبموالاتهم تقبل الطاعة المفترضة ولهم المودة الواجبة والمقام المحمود والدرجات الرفيعة والجاه العظيم والشأن الكبير عند الله عز وجل والشفاعة المقبولة[٥].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٦].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: (اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي اهل بيتي ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي ابدا)[٧].

ثالثاً: لقبه .

اشهر القابه الرضا، وذكر ا ناباه الامام الكاظم عليه السلام هو الذي لقبه بهذا اللقب ولقب سراج الله قرة عين المؤمنين، نور الهدى، الفاضل، الصابر، الوافي، الصديق، الرضي[٨].

وقد لقبه رسول الله صلى الله عليه وآله بخير اهل الارض[٩]، وارود البزنطي عن الامام الجواد عليه السلام انه قال ((انما سمي الرضا، لانه كان رضي الله تعالى في سمائه، ورضي الرسول والائمة من بعده في ارضه))[١٠].

رابعاً: وفاته.

لاتعد قضية استشهاد الامام الرضا عليه السلام من القضايا المعقدة والمبهمة كما عدها البعض[١١]. بل هي واضحة اذا اخبر الامام الرضا في اكثر من حديث ومناسبة.

إن المأمون العباسي هو الذي سيقتله بالسم، هذا اذا عرفنا ان الظروف السياسية التي املت على الخليفة القيام بالتدبير لقتل قائده الكبير (هرثمة بن اعين) فور وصول مرو دون ان يستمع الى شكواه او يصغي لدفاعه عن نفسه، ثم وزيره الفضل بن سهل وابعاد طاهر

بن الحسين وابنائه فيما بعد[١٢]. وقتل اخاه الامين قبل ذلك فكيف لا يفعل ذلك بولي عهده وهكذا استشهد الامام عليه السلام مسموما مظلوما غريبا كما قتل جميع الائمة المعصومين عليهم السلام بالسيف او بالسم[١٣] وذهب بعض المؤرخين ان المأمون اظهر الحزن والجزع عليه[١٤].

وحادثة تشييع الامام عليه السلام لم تر خراسان مثيلا لها، حيث عطلت الدوائر واغلقت المحلات التجارية وهرع الناس لتشييع الامام ورفعت الاعلام السود وسالت الدموع وتعالى الصراخ من كل جانب وكان الخليفة يتقدم النعش ومعه رجال الدولة وقادته.

أما عن سنة وفاة الامام فقد توفي في قرية بطرس يقال لها (سناباذ) ودفن في دار حميد بن قحطبة الطائي سنة ٢٠٣ وقد تم عمره تسعا واربعين سنه وستة اشهر منها مع ابيه موسى بن جعفر عليه السلام تسعا وعشرون سنه وشهران، فقد عاصر الرشيد والامين والمأمون[١٥].

لقد نشأ الامام الرضا في بيت العلم والتقوى في اعرق بيوت شرفا، بيت النبوة والامامة اقدس البيوت مكانة ومنزلة في نفوس البشر، ومن الجدير بالذكر ان عصر الامام الرضا عليه السلام تميز بانه عصر انفتاح الامة على الحضارات الاخرة التي اخذت تتأثر بها الحضارة الاسلامية تأثرا ملحوظا في بناء صرحها، وكان لهذا الانفتاح مبلغا عظيما حتى كان يهدد الثقافة الاسلامية فتصدى الامام لهذه الظاهرة الخطيرة وذلك بتهيئة اجيال من العلماء ليحصروا على صيانة التراث الاسلامي من الذوبان والانهيار فقاموا بنشر الفكر الاسلامي الصائب من ارجاء العالم الاسلامي واهتموا بتربية اجيال تحمل هذه الرسالة الى العالم اجمع ويتضح ذلك من خلال ما صدر عنهم من نصوص وما تضمنتها من التوجيه الى افاق المستقبل المشرق الذي ينتظر اتباع اهل البيت عليهم السلام في زمان الامام الرضا عليه السلام وتمثل في كثرة التأليف والتدوين والتدريس والرواية وتشمل جميع الحقول المعرفية آنذاك.

المبحث الأول

الدراسة الموضوعية

يتناول المبحث مجموعة من القيم الموضوعية التي اثارها الشعراء في رثائهم للإمام سلام الله عليه فقد امتاز أدب رثاء أهل البيت عليهم السلام باحتوائه على مضامين خلقية عالية جسدها الأدباء فيما يكتبون بحق العترة الطاهرة[١٦].

ويعد الإمام الرضا عليه السلام واحدا من المعصومين الذين أتيح لهم أن يتحرك فكريا و أن يعقد المجالس العلمية و المناظرات و المقابلات و أن يتتلمذ علي يده كبار العلماء و أن يشيد بفضله كبار السياسيين: من سلاطين و وزراء و رؤساء المذاهب و الكتاب و كل من يعني بالشؤون الثقافية بحيث أقروا بتفرده علميا من خلال مقابلاتهم أو أسئلتهم و تلمذتهم، كما أن لهيمنته الاجتماعية اضطر المأمون أن يجبره علي ولاية العهد لأهداف سياسية متنوعة ومنها ما ذكر أبو الصلت الهروي من أن المأمون أراد أن يقلل من قيمته اجتماعيا فيخيل إلى الناس بأنه عليه السلام يميل الدنيا كما انه جلب إليه مختلف العلماء لإسقاطه علميا إلا انه عليه السلام كان يتغلب علي ممثلي الاتجاهات من يهود و نصارى و مجوس و صابئة و براهمة و دهريين و ملحدين و فرق متخالفة إسلاميا حتى أنهم طالما كانوا يصرحون بأن الرئاسة ينبغي أن تكون له و ليست للمأمون وسواه و مما جعل المأمون يحتقب ذلك في قلبه حتى دس إليه السم في نهاية الأمر(١٧). ولعل من أهم القيم التي أشار إليها الأدباء في رثائهم للإمام الرضا عليه السلام:

أولاً: الكرم:

يعد الكرم من الأخلاق العريقة القديمة التي عرفها منذ الأزل أصحاب النفوس العظيمة فأكبدوها في تعاملاتهم ومدحوا بها ساداتهم وجعلوها دليل الرفعة والفخار وغاية المجد لما فيها من الإيثار وعلو الهمم والأقدار وكانت عندهم نقيض اللؤم والشنار وفى فقدها كل مذمة وعار فالكرم عادة السادات وشيمة الأحرار وعادة السادات سادات العادات وشيمة الأحرار أحرار الشيم(١٨)، ويعد الصاحب بن عباد واحدا من الشعراء الذين ذكروا صفة الكرم عند الإمام سلام الله عليه في قوله من قصيدة طويلة يتحدث فيها عن فضائل أهل البيت عليهم السلام(١٩):

حَتّـــى إذا عُـــدتُم إلى بَغـــدان ... لمشَـــهد الزَكـــاءِ وَالرِضـــوان

فَبَلِّغـــوا عَنّـــي سَـــلاماً دائِبـــا ... سَـــلامَ مَـــن يَـــرى الـــوَلاءَ واجِبـــا

وَواصَـــلوا السَـــير وَزوروا طوســـا ... نَحـــو عَلِـــيٍّ ذي العلـــى بـــن موســـى

حَيّـــوهُ عَنّـــي مـــا أَضـــاءَ كَوكَـــبُ ... وَمـــا أَقـــامَ يَـــذبلٌ وَكَبكَـــبُ

ومن الشعراء الآخرين الذين ذكروا فضائل الإمام الشاعر العماني محمد بن شيخان في قوله(٢٠):

ومن لي بشخص كلما مرَّ طارق ... من الدهر أضحى ودُّه مُتجدِّدا
وحمَّال أعباءَ التكاليف في الورى ... قليل وقلَّ الشكر في زمن عَدا
وقلَّ الرِّجال الكاملون ومنهم ... علي بن موسى فايض الجود والندى
تفيض يداه بالجميل فأصبحت ... أياديه جوداً تفضح البحر مُزْبِدا
ترى الناس أفواجاً إلى باب داره ... يلاقون مرعى أو يوافون موردا
تعوَّد فعل الخير حتى تزاحمت ... عليه مَساعي الناس مثنى ومَوْحَدا
وفيض وادي الخير والبركات من ... يديه فأضحى في المحاسن مُفردا

فالشاعر هنا يذكر هذه القيمة الخلقية التي لا تتيسر لكل إنسان إنما يمتاز بها القلة ومنهم إمامنا الرضا عليه السلام وهو بذلك يريد ان يقول انه من حقنا أن نذكر هذه القيم و نتغنَّى بها ونأخذ بها فهي خالدةٌ وصالحةٌ لكل وقت فالقيم السامية تبقى خالدةً و قاعدةً متينة لبناء المجتمع و الأمَّةِ و الأفرادِ. فإنها تبني إنساناً فاضلاً و ترفَعُ من شأنِ المجتمع فهي سلاحٌ فعَّالٌ.

اما الشاعر عبد الغفار الأخرس فيقول متغنيا بأخلاق الإمام عليه السلام في قوله[٢١]:

عليّ الرضا مشريفّ القضا ... وغيث العطاء غياث الأمم
قريب النوال مجيب السؤال ... منيع المنال رفيع الهمم
جَزيل الثواب مجيد الضّراب ... شديد العقاب إذا ما انتقم

فالشاعر هنا أمام سيل من الصفات والقيم الخلقية التي يعجز المرء عن وصفها الا ان ريشة هذا الشاعر استطاعت ان تجسد لنا بعض هذه الصور فهو غيث العطاء، وهو قريب النوال ومجيب السؤال ورفيع الثواب ومنيع المنال وجزيل الثواب لاحظ تلاحق الصفات بطريقة لا تشعر القارئ بالملل إنما تحس معها ان الإمام أعجوبة من أعاجيب الدنيا، وان الفضل في هذا يعود للتربية القرآنية التي فطر ونشا وترعرع عليها الإمام سلام الله عليه.

ثانياً: الصدق .

وهو: مطابقة القول للواقع، وهو أشرف الفضائل النفسية، والمزايا الخلقية، لخصائصه الجليلة، وآثاره الهامة في حياة الفرد والمجتمع.

فهو زينة الحديث ورواؤه، ورمز الاستقامة والصلاح، وسبب النجاح والنجاة، لذلك مجّدته الشريعة الإسلامية، وحرضت عليه، قرآناً وسنّة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾. (الزمر: ٣٣ - ٣٤)

وقال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾. (المائدة: ١١٩)

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾. (التوبة: ١١٩)

وهكذا كرَّم أهلُ البيت عليهم السلام هذا الخلق الرفيع، ودعوا إليه بأساليبهم البليغة الحكيمة:

قال الصادق عليه السلام: ((لا تغتروا بصلاتهم، ولا بصيامهم، فإنّ الرجل ربما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش، ولكن إختبروهم عند صدق الحديث، وأداء الأمانة)).

وقد ذكر الشعراء هذه الصفة عند الإمام في أشعارهم ومنهم الاخرس في قوله[٢٢]:

ففي مثل صدق عليّ الرضا ... تَبلّج صُبحُ الرّضا وابتسم

فقرّبه من علاهُ المليكُ ... فكان المبجَّلَ والمحتشم

إذا كان الصدق في المواضيع العلمية يعني التدقيق والوضوح واستعمال المنطق والابتعاد عن لغة الخيال، وملائمة الواقع فإنّ الصدق في الأدب يتحقق إذا انطلق من عاطفة المبدع وانفعاله. وهو إذا كان يخرج من القلب فإنه يصل إلى قلب المتلقي، فيشعر بما شعر به المبدع وينفعل معه؛ والصدق هنا يتحقق؛ ولا يتم هذا إلا بالخيال أو الصور الفنّية، واستعمال الكلمات بأسلوب معيّن، وكم من موضوع واحد يتناوله عشرات الشعراء، ولكنّنا نحس الصدق لدى هذا، ونرى التكلف لدى ذاك، نرى الطبع - وهو من مقومات الصدق - عند هذا، ونرى الصنعة أو التقليد - وهما نقيضان للصدق - لدى الآخر، إن الخيال هو الثوب الذي يُلبسه المبدع لفكرته أو لمعناه، فالخيال مرفوداً بالعقل يقدّم خصوصية للشاعر تنبثق من خلال انعكاسات الأشياء في حسه وفي نفسه.

لقد عرف المجتمع جيدا ان غاية أهل البيت هو الإخلاص في العمل وطاعة الباري عزّ

وجل و أداء العمل ابتغاء رضا الله وحدة وليس لأي مأرب آخر من مدح مادح أو تحصيل منفعة دنيوية ولقد شرطه الله شرطاً أساسياً لقبول العمل قال تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٢٣].

وقد تنبه الشعراء الى صفة التطهير التي اختص بها أهل البيت عليهم السلام فقد ذكر الشاعر عبد الجليل الطبطبائي ذلك في قوله[٢٤]:

مَطهـــــرون نقيـــــات ثِيـــــابِهم ... عَـن كُـلِّ رِجـس بِهِـم يَسـتَنزِل المَطَـر

بِـذِكرِهِم كُـل نـاد بِالشَـذا عِبِـق ... تَجـري الصَـلاةُ عَلَـيهِم أَينَمـا ذَكَـروا

مَـن لَـم يَكُـن علويـاً حـينَ تَنسُـبُه ... فِي الـدينِ وَالمُحتَـد الزاكـي فَمُحتَقَـر

وَمـن يفتـه وَلاء الطهـر حيـدَرَةٌ ... فَمـا لَـهُ فِي قَـديم الـدَهرِ مُفتَخَـر

اللَـهُ لِمـا يَـرى خَلقـاً فأَتقنَـهُ ... بِكُـم هُـداهُم وَليـل الغَـي مُعتَكَـر

فَـأَنتُم المَلَـأُ الأَعلـى وعنـدكم ... بَيـان أَسـرار مـا حـارَت بِـهِ الفِكَـر

ومن الجدير بالذكر ان فضل أهل البيت عليهم السلام لم يقتصر على حديث الشعراء

فلم يرد في السنة المباركة في فضل أحدٍ مثلما ورد في أهل البيت عليهم السلام من الأحاديث الصحيحة والمتواترة التي تصرّح بخصائص تفردوا بها وفضائل لا يشاركهم فيها أحد، فهم سفن النجاة وأزمّة الحق وألسنة الصدق وأمان الأُمّة والعروة الوثقى ودعائم الدين وأبواب العلم.. الى آخر الصفات التي تصرّح بها الاَحاديث النبوية[٢٥].

ويمتاز رثاء الإمام بالصدق، الذي يهز الوجدان لإرتباطه بالواقع ولعل أجمل ما يميز شعر رثاء الإمام انه يسعى وسعيه نحو تأصيل قيم الفضيلة، لبناء الشخصية السوية المستقرة نفسيا، فضلا عن كونه شعر ذو فطرة سليمة مهذبة ومشذبة بقيم ديننا الحنيف باعتبار الشجاعة والعفة هي جمال الخلق القويم، ومنها تتفرع القيم الأخرى، إذ أن الشجاعة والكرم صنوان، وإغاثة الملهوف ونجدة المظلوم لا تأتي إلا من شجاع، والمرؤة والشهامة والغيرة علي العرض وإكرام المرأة وحسن الجوار وقد ورد عن الشاعر احمد قفطان قوله[٢٦]:

هـــو ذا علـــي بـــن الرضـــا مـــولى لـــه ... طـــرف ترعـــى المـــؤمنين موكـــل

المستقل من الرياسة في ذرى ... شماء لا يستطيعها المتوغل
جار علي سنن النبي لسيرة ... العلماء من آبائه متقبل
يا نور مشكاة العلوم بنورك ... الدري بأن محرم ومحلل

كان الشعر ولازال ديوان العرب و سجلُّ أيَّامهم، و واحة نفوسهم فما منْ شعبٍ أو أمةٍ إلاَّ و تصارع فيها الخيرُ و الشرُ و الفضيلة و الرذيلة، و هذا حالُ شعر تأبين أهل البيت فهو مليءٌ بالدُّرَرِ و القيم الخلقيَّةِ التي تسلَّحَ بها العربيُّ و دعا إليها فمدح من أخذ بها و اكتسبها و هجا و ذمَّ من ابتعد عنها لقد اكتسب هذا النوع من الأدب قيماً رفيعةً جاءت من المرثي الذي عاش في مجتمع القيم والفضيلة و ما فيه من رجالٍ امنوا بقضية نصرة الدين الإسلامي الحنيف.

وقد أشار الشاعر محمد السماوي الى الصفات النبيلة عند الإمام الرضا عليه السلام في قوله[٢٧]:

علي بن الرضا بن موسى ... بن جعفر خير من يعنون
قدمه الجد منه حتى ... حدث عن جده وعنعن
فهو بصدر العلا مكين ... وغيره فيه ما تمكن
إذا غدا الناس للمعالي ... راح بشوط السباق يستن
وجاز مضماره فأعلى ... في قصبات العلى وأعلن

إذا الأدب الإسلامي يتواءم مع هذه المفاهيم الاجتماعية للأدب، بل إن هذه العلاقة بين الأدب والحياة، أو الأدب والمجتمع، علاقة واضحة في فكر الأديب المسلم، الذي يدرك أبعاد رسالته، ويعي تجاربه الحضارية، ويفهم التلاحم الوثيق بين المبادئ الإسلامية وحركة الحياة على مدار العصور، ولقد حفل الفكر الإسلامي بعناصر القوة والتجدد والحركة والابتكار طوال حقب التاريخ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما كانت تلك الحركة العلمية، والتراث الفكري، واتصال عملية الاجتهاد والتجاوب مع ما يجدّ من أحداث الحياة وصورها.

المبحث الثاني

الدراسة الفنية

يحاول هذا المبحث دراسة اهم الظواهر الفنية الواردة في شعر رثاء الامام الرضا سلام

الله عليه فضلا عن اللغة الشعرية وما تمتاز به من انزياحات اثرت في جمالية النص ومن اهم تلك الظواهر التصوير الفني.

اتفق الدارسون على ان الشعر ينبع من العاطفة، والتصوير الفني هو الذي يجسد هذه العاطفة، ويجعل الآخرين يشعرون بها ويتعاطفون معها ويتأثرون وهم يقرأونها أو يسمعونها، كما أنهم يستمتعون ببراعة التصوير ويتذوقون لذة الجمال وهم يرددونها لقد أوجد الشعراء صورا مختلفة في رثاء الإمام عليه السلام وجاءت هذه الصور من طاقات وإمكانات اللغة التي استطاع الشعراء تسخيرها واستغلال إمكاناتها الواسعة ومن ثم قدموا لنا صورا مؤثرة تحاكي المعاني الشعرية انظر الى قول عبد الغفار الأخرس[٢٨]:

علـــيّ الرضـــا مشـــريقّ القضـــا ... وغيـــث العطـــاء غيـــاث الأمـــم

ففـــي مثـــل صـــدق علـــيّ الرضـــا ... تَـــبَلّج صُـــبحُ الرّضـــا وابتســـم

وفيـــتَ لـــه يـــا علـــيّ الرضـــا ... وهـــل ينفـــع الغـــادرين النـــدم

لقد وظف الشاعر التعابير المجازية وانتقل باللغة من الاستعمال الحقيقي الى الاستعمال المجازي اعتمادا على إمكانات اللغة ومن هذه التعابير المجازية (غيث العطاء) و (صبح الرضا).

وقول الشاعر ابن الجنان:

يـــا أيهـــا المـــزن الـــذي قـــد روّضـــت ... أرض الرضـــا ســـحباً لـــه ســـقياه

فالمعروف ان المزن ليس له القابلية على ان يروض الأرض انما يأتي هذا الترويض نتيجة الأمطار التي تنزل على الأرض وتعيد لها الحياة.

اما الشاعر عبد الرحمن العيدروس فقد وظف الكناية في قوله:

قبـــة للرضـــى حـــوت كـــل فضـــل ... مـــا حـــواه وادي طـــوى والطـــور[٢٩]

فالكناية هنا عن نسبة فالذي حوى الفضل ليس القبة إنما هو الإمام سلام الله عليه فمن المعروف ان لكل شاعر من الشعراء أسلوبُهُ وطريقتهُ الخاصة في بناء النص، وذلك يعتمدُ بشكلٍ أو بآخر على إمكاناته الإبداعية وقدرته في التعامل مع أنظمة اللغة بشكل يفسحُ المجال لموهبته؛ لأن تَعتَليَ سُلّم الإبداع في إنتاج الصورة الشعرية، وشاعرنا من الشعراء

الذين استطاعوا أن يستعملوا تقنيات متعددة وأدوات مختلفة في إنتاج الدلالات الإيحائية، منها الأسلوب الكنائي.

المجاز في قول الشاعر: إبراهيم بن إسماعيل فقد وظف المجاز في إنتاج الصورة

إن الرزية يا ابن موسى لم تدع ... في العين بعدك للمصائب مدمعا[٣٠]

ورد في الروض المعطار ان الشاعر إبراهيم بن المهدي كتب يرثي الإمام بقوله[٣١]:

بطوس ومن تكتب بطوس وفاته ... يطلْ من أخلاء الصفاء له الهجر

كملت فلما صرت للأرض زينة ... أفلت عن الدنيا كما يأفل البدر

فما الخير بالمأمول ما هبت الصبا ... ولا الشر بالمأمون ما برق الفجر

اما صاحب كتاب مرآة الجنان فقد أورد عن الشاعر الحسن بن هاني قوله[٣٢]:

قيل لي أنت أحسن الناس طراً ... في فنون من المقال النبيه

لك من جيد القريض مديح ... يثمر الدر في يدي مجتنيه

فعلى ما تركت مدح ابن موسى ... والخصال التي ذهبت هي فيه

قلت لا أستطيع مدح إمام ... كان جبريل خادماً لأبيه

ونستطيع القول ان استعمال الشاعر لعبارة (كان جبريل خادما لأبيه) من الابتكارات المتميزة التي تفرد بها هذا الشاعر فهذه الصفة لا تتوفر لأي شخص فقط ،للمعصومين من ذرية أهل البيت عليهم السلام ، وهي إشارة إلى مصاحبة جبريل عليه السلام الى النبي محمد صلى الله عليه وآله.

ومن الشعراء من لجا الى الأسلوب الاستعاري لتصوير شخصية الامام عليه السلام في قوله:

إنّكَ اليوم رغم أنفِ الرزايا ... خالدٌ في النفوسِ قبلَ القلُوبِ

يا بنَ موسى الرضا لَأنتَ منارُ ... يهتدي فيهِ كلُّ عبدٍ مُنيبِ

أما الشاعر اشجع بن عمرو السلمي فيقول في رثاء الامام الرضا عليه السلام[٣٣]:

يا صاحب العيس يحدي في أزمتها ... اسمع وأسمع غدا يا صاحب العيس

أقر السلام على قبر بطوس ولا ... تقر السلام ولا النعمى على طوس

فقد أصاب قلوب المسلمين بها ... روع وأفرخ فيها روع إبليس

وأخلست واحد الدنيا وسيدها ... فأي مختلس منا ومخلوس

ولو بدا الموت حتى يستدير به ... لاقى وجوه رجال دونه شوس

فالشاعر يوجه خطابه الى صاحب العيس متخذا منه كمعادل موضوعي لفحوى قصيدته حتى يصل الى غرضه الأساس وهو رثاء الامام الرضا عليه السلام محمل صاحب العيس امانة وهي السلام على القبر الشريف موجها لومه الى المدينة التي اصابت قلوب المسلمين بالروع نتيجة فاجعة استشهاد الامام سلام الله عليه خاصة انه الامام الأوحد وسيد الدنيا، وهي اوصاف اجاد الشاعر في رسمها، وتمتاز لغة الشاعر انها تجمع بين القديم والحديث من حيث الالفاظ مستفيدا من الأساليب البلاغية ومنها فن التجنيس لما له من إيقاع صوتي يؤثر في المتلقي.

أما الشيخ جعفر بن عبد الحميد بن إبراهيم الهلالي فانشد في حق الامام الرضا عليه السلام:

يمم خراسان واقصد ظلها الرحبا ... وانشد بها من قريض الشعر ما عذبا

وحيها تربة تسمو بروعتها ... فها هنا المجد صرح ينطح الشهبا

مجد له في سما العلياء مؤتلق ... لا زال يخترق الأجيال والحقبا

مجد تهاوى له الأملاك ساجدة ... من قبل ألف ولم تعدل به سببا

مجد (الرضا) من على هام الزمان له ... تاج، فسبحان من أعطى ومن وهبا

سبط النبي وفرع من أرومته ... قد شرف الله فيه العجم والعربا

منزه عن صفات النقص طاهرة ... منه الثياب تسامى عزة وإبا

من معشر هم لهذا الخلق سادته ... من حبهم في كتاب الله قد وجبا

آل الرسول وهل تحصى مناقبهم ... عدا، وهل يبلغ المعشار من كتبا

الشاعر في هذه القصيدة يتغنى بكل صفات المرؤة والنبل والكرم مستفيدا من وقع المكان ودلالته الفنية في الحديث عن منزلة الامام العظيمة في نفوس الناس فالشعر لا يحلو انشاده الا في حضرة الامام الرضا سلام الله عليه ـ وقد أدت الكناية دورها في هذه القصيدة فقد كنى الشاعر عن الموصوف بالكرم والشجاعة فضلا عن الاستعارات الفنية حيث نلاحظ ان المجد يصرح ويتغنى والسماء العالية التي تخترق الأجيال لتوثق المنزلة العظيمة.

والمسألة المهمة التي أشار اليها الشاعر ان هذه المنزلة الكبيرة مرتبطة بالتكوين الإلهي فهو الذي يعطي ويهب من يشاء من عباده الصالحين، خاصة عندما يخصص المنزلة التي تمتع بها الامام وهي ارتباطه ببيت النبوة وانه السبط والفرع من تلك الشجرة العظيمة.

أما الشاعر عبد المحسن الكاظمي فقال في حق الامام الرضا عليه السلام[٣٤]:

ثنينا عطف محمود الثناء	لمغنى سبط ختم الأنبياء
لربع هداية لله فيه	مواهب رحمة لذوي الولاء
لمغنى فيه للرضوان مأوى	وفيه للرضا أسمى بناء
لمغنى تلثم الشمس اعتمادا	تراه في الصباح وفي المساء
إلى شمس الشموس وما سواه	أنيس في الأسى للأصفياء
إلى شمس حبا طوسا بشمس	تفوق الشمس باهرة الضياء
علي الندب وابن الندب موسى	سليل ذوي الهدى أهل العباء
إمام من إمام من إمام	وما لله فيه من بداء
وثامن سادة سادت بمجد	سما أدناه مجد الأنبياء

امتازت لغة الشاعر بانها لغة سلسة واضحة وظف الشاعر فيها أساليب البديع ومنها الجناس اللفظي ومنا الرضا والرضوان والشمس والشموس، كذلك كان للتكرار اللفظي دوره في تحقيق الانسجام الصوتي فضلا عن التأكيد على الامامة وانها كانت اختيار الهي، وان امامنا الرضا هو سليل الدوحة المحمدية وهو امام من امام، لذا فهو يستحق الندب.

لقد نجح شاعرنا في اطلاق الاوصاف الفنية وتوظيف القاب الامام الرضا عليه السلام ومنها شمس الشموس وانيس النفوس وثامن السادات، لقد فاقت شمس الامام الرضا الشمس بالضياء وهو هنا يشير الى منزلة العلم الرفيع والنور الإلهي الذي يمتد الى يومنا هذا.

الخاتمة:

أدب رثاء الإمام الرضا عليه السلام كان وما يزال أحد وسائل التعبير عن الفكر الحي والمعاني السامية، وله الدور المؤثر في صناعة الأجواء الروحية وتوجيه الجمهور نحو المبادئ النبيلة

وهو الشعر الذي انتشل الشعوب المستضعفة من الركون للطاغي إلى الارتقاء نحو الكمال والرقي والتسامي.

اظهر البحث ان ا لشاعر في مثل هذا الأدب هو الأديب الهادف الذي يحمل رسالة العز والمناعة، لا الشاعر الذي يتخذ من شعره مهنة وبضاعة.

فضلاً عن هذا يعد ديوان رثاء أهل البيت عامة شكل من أشكال عطاء الإنسان المؤمن وأسلوب من أساليب التعبير لديه. إنه العطاء الذي يتولّد على النحو الذي يأتي من تفاعل العوامل التي رواها الإيمان والتوحيد فارتبطت به، حين يحمل هذا العطاء والتعبير الجمال الطاهر، ليساهم هذا الفنّ الإسلامي في بناء حضارة الإيمان في حياة الإنسان.

هوامش البحث

(١) مناقب ال ابي طالب، ابن شهراشوب السروتي المازنداني (ت٥٨٨هـ) ج٢، ص٤١٧، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف، ١٣٧٦هـ -١٩٥٦م.

(٢) عيون اخبار الرضا عليه السلام ، الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ)، ج٢، ص٣٨، دار العلم للنشر (جهان)، ١٣٧٨هـ.

(٣) مناقب ال ابي طالب، ابن شهراشوب، ج٢، ص٤١٧.

(٤) الكافي، الكليني ابو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق (ت٣٢٩هـ)، ص٤٨٦، تحقيق: علي اكبر غفاري، دار الكتب الاسلامية - اخوند، ط٣، ١٣٦٧.

(٥) عيون اخبار الرضا عليه السلام ابن شهراشوب ، ج١، ص١٨.

(٦) الاحزاب: ٣٣.

(٧) صحيح مسلم، النيسابوري مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ)، ص٣٧، دار الكتب - بيروت ١٩٧٧هـ.

(٨) دلائل الامامية، محمد بن جرير ابو جعفر الطبري (ت٣١٠هـ)، ص١٨٠، تحقيق: قسم الدراسات الاسلامية - مؤسسة البعثة - قم، طبعة اولى ١٤١٣هـ.

(٩) اعلام الورى باعلام الهدى، ابو علي الفضل بن الحسين الطبرسي (ت٥٤٨هـ) (وهو من اعلام القرن السادس)، ص٣٠٢، دار الكتب الاسلامية - طهران.

(١٠) كشف الغمه في معرفة الائمة عليهم السلام علي بن عيسى الاربلي (ت٦٩٣هـ) ج٢، ص٣١٢، مكتبة بني هاشم تبريز ١٣٨١هـ.

(١١) الامام علي بن موسى الرضا ودوره في احداث عصره - نبيل محمد - رسالة ماجستير كلية الاداب جامعة الكوفة سنة ٢٠٠٥م.

(١٢) البداية والنهاية، ابن كثير ابو الفداء اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت٧٤٤هـ)، ج١٠، ص٣٦٠، طبع مكتبة العارف، بيروت، دار احياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ.

(١٣) بحار الانوار الجامعة لدرر اخبار الائمة عليهم السلام، المجلسي محمد باقر (ت١١١١هـ)، ص٢٨٥، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان ١٤٠٤هـ، الطبعة ٤.

(١٤) كشف الغمة، الاربلي، ٧٦/٣.

(١٥) عيون اخبار الرضا، الصدوق، ج٢، ص٢٩.

(١٦) ينظر الرثاء في العصر الجاهلي وصدر الإسلام: ٦٥

(١٧) ينظر عيون أخبار الرضا ج٢ ص١٣٩ والبحار ج٤٩ ص١٣٠ والمجالس السنية: ج٢، ٦٠٣.

(١٨) ينظر: المستطرف في كل فن مستظرف شهاب الدين الأبشيهى والكرم والجود والسخاء أ/ سمير حسين حلبى.

(١٩) الأبيات في الديوان: ٤٧

(٢٠) الأبيات في الديوان:٦٨ وينظر أدب الشيعة: ٤٧

(٢١) الأبيات في الديوان:٢٤/١

(٢٢) الأبيات في الديوان: ١٢٢ وينظر تاريخ الإسلام للذهبي: ١٤ /٢٧٤.

(٢٣) الآية ١١٠ من سورة الكهف

(٢٤) الأبيات في الديوان: ١٣٥ ونظر اتجاهات الشعر في العصر الاموي: ٥٦.

(٢٥) ينظر المنتخب في المراثي والخطب:٨٦

(٢٦) الأبيات في الديوان:٦٧ وينظر أبحاث في الشعر العربي: ٨٩

(٢٧) الأبيات في الديوان: ١٣٦وينظر:الأغاني:٦٨/٣

(٢٨) الأبيات في الديوان:٦٨. وينظر بناء الصورة الفنية في البيان العربي:٤٩

(٢٩) البيت في الديوان: ١٥/١

(٣٠) البيت في الديوان ٣٤/١

(٣١) ينظر الروض المعطار:٥٧/٢

(٣٢) مرآة الجنان:٨٣/١. وينظر التصوير البياني:٦٦

(٣٣) الأغاني ١٣٤/٦ وديوان الشاعر:١٧٦

(٣٤) الديوان: ٧٨.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتديء به القران الكريم

١. الأغاني، لأبي فرج الأصفهاني ت ٣٥٦هـ، شرحه وكتب هوامشه الأستاذ عبد علي مهنا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، لبنان، ١٩٨٦م

٢. أبحاث في الشعر العربي، د. يونس احمد السامرائي، مطبعة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل (د ت).

٣. اتجاهات الشعر في العصر الأموي، د. صلاح الدين الهادي، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٦ م، التصوير البياني، د. حنفي محمد شريف، المطبعة العثمانية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٧٣م.

٤. أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، عبد الحسيب طه عبده، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، مصر، ١٩٥٦م.

٥. بحار الأنوار الجامع لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي(ت١١١١هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٦. تاريخ اليعقوبي، احمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح العباسي المعروف باليعقوبي(ت بعد ٢٩٢هـ)، تحقيق: عبد الامير مهنا، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٧. التصوير البياني، د. حنفي محمد شريف، المطبعة العثمانية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٧٣م.

٨. حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، د. يوسف خليف، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر، ١٩٦٨م.

٩. ديوان أبي نواس الحسن بن هانيء، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي، القاهرة، ١٩٥٣ م.

١٠. ديوان عبد المحسن الكاظمي، تحقيق حكمة الجادرجي ، مطبعة ابن زيدون - دمشق ١٩٤٠.

١١. الرثاء في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، بشرى محمد علي الخطيب، مطبعة الإدارة المحلية، بغداد، ١٩٧٧م.

١٢. الروض المعطار في خبر الأقطار، ابن عبد المنعم الحميري، تحقيق الدكتور إحسان عباس، ١٩٧٥م

١٣. عيون اخبار الرضا عليه السلام ، الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ) ، دار العلم للنشر (جهان) ، ١٣٧٨هـ.

١٤. الكافي، الكليني ابو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق (ت٣٢٩هـ) ، تحقيق: علي اكبر غفاري ، دار الكتب الاسلامية - اخوند ، ط٣ ، ١٣٦٧.

١٥. المجالس السنية في الكلام عن الأربعين النووية، احمد بن حجازي، طبعة مصر، ١٩٦٨

١٦. المستطرف في كل فن مستظرف و بهاء الدين الابشيهي، تحقيق: إبراهيم صالح، دار صادر، بيروت،ط٢٠٠٤،١م.

١٧. مرآة الجنان، لأبي محمد عبد بن أسعد بن علي اليافعي (ت ٧٦٨ هـ)، طبع الهند،١٣٣٧ هـ

١٨. مناقب ال ابي طالب ، ابن شهراشوب السروتي المازنداني (ت٥٨٨هـ) ، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف، ١٣٧٦هـ -١٩٥٦ م.

١٩. المنتخب في المراثي والخطب، المعروف بالفخري، تأليف فخر الدين الطريحي ، المطبعة الحيدرية، الطبعة الثالثة، النجف الاشرف، ١٩٤٩م.